مجمع اللغة العربية
دمشق

المؤتمر السنوي الثامن
(نحو رؤية معاصرة للتراث)
9-13 / 11 /2009

مكانة العرب في تطور الطب

نشأت الحمارنة

ينصرف الذهنُ حينما تُلفَظُ كلمة (عرب) إلى عرب اليوم, وإذا كان المراد من استعمال الكلمة مرادٌ تاريخيٌ فربما انصرف الذهن إلى عرب ما بعد الإسلام, أو عرب العصر الذي اصطلحنا على تسميته بالجاهلية.

لكن معنى كلمة (عرب) في مجال **التراث** ينبغي _ في رأينا_ أن يتجاوز التراثَ المكتوب بالعربية إلى التراث الأقدم قبل عصر التدوين, التراث الروحي والفكري ، الحضاري والثقافي, الفني والأدبي ، العلمي والطبي ، إلى آخر ما هنالك من أصناف التراث.

إذا لم نكن نحن أحفادَ قدماء المصريين والسومريين والبابليين والعموريين والآراميين والكنعانيين والنوبين, والليبيين و الأمازيغ فمن يكون أحفادهم يا ترى؟

إذا لم يكن تراثهم الشفهي قد حُفِظَ في بلادهم, في بلادنا, فأين حفظ إذن؟

إذا لم نكن ورثتهم ، ورثة حضاراتهم ، فمن ورثتهم ؟

عانى تاريخ العلم في القرن العشرين من سيطرة تصوّر خاطئ يفترضُ أن العلم بدأ مع الإغريق, ويتجاهلُ انجازاتِ أممٍ عديدة في جوار اليونان على مدى خمسةٍ وعشرين قرناً, وينفي أن يكون هؤلاء قد أثّروا في الإغريق, ويرفض أن تكون الحضارات القديمة قد وصلت إلى مستوى من التطور يسمح بأن تنتج علماً ، وظل مؤرخو الطب الأوروبيون ينقلون عن زملائهم الذين سبقوهم دون تمحيص ، هذا على الرغم من الاكتشافات الضخمة التي جرت في القرون الثلاثة الأخيرة, ومن الدراسات الجادّة التي وصفت تاريخَ التفكير الإنساني, ونشاطَ العقل البشري، وبَيَّنت تفاصيل ما وصلت إليه أمم الأرض من مدنية وحضارة عبر تاريخها الطويل .

وفي هذا التعّسف ما فيه من إهانةٍ للعقل البشري, وهولا يبتعد بأصحابه كثيراً عما نسميه اليوم (العنصرية).

لقد شكّل هذا التصوّرُ الخاطئ قناعاتٍ جامدةً عند الكثيرين من مؤرخي العلم غذّتها النظرة الأوربية المتمركزة حول ذاتها, هذه النظرة التي لا تَرَى في العالم إلا مركزاً واحداً هو أوربا تدور حوله البلاد المجاورة, وتنهل العلمَ منه.

هذه القناعات جرّت بعضَ المؤرخين إلى افتراض أن يكون ظلامُ العصور الوسطى الأوربية قد خيّم على جوارها من البلدان. وعلى ذلك فإنهم افترضوا أن العصور الحديثة التي تلت العصر الوسيط إنّما هي ولادة جديدة لعصر الإغريق, فتاريخ العلم في العالم المحيط بالبحر المتوسط عندهم , إنما هو مرحلتان:

الإغريق في البدء يعقبهم ظلام العصر الوسيط, ثم العصر الذي أحبوا أن يسمّوه عصر النهضة.

وما يصحّ عندهم في حقل تاريخ العلم يصحّ في حقل تاريخ الطب.

لقد تجاهل معظمُ مؤرخي القرنين التاسع عشر والعشرين شهادات علماء الإغريق وأطبائهم بأنهم تعلموا الكثير من مصر القديمة, وظلوا على زعمهم بأن الطب بدأ في اليونان، وأن الأدوية جاءت كذلك من هناك , على الرغم مما قاله الإغريق: " إن مصر معينٌ للأدوية لا ينضب" وعلى الرغم من أن ديوسقوريدوس جمع معلوماته عن الأدوية من الشرق.

وفي إصرار أصحاب هذا الرأي على أن عصر النهضة – كما أحبّوا تسميته – إنما هو استمرار للإغريق, أنكروا أن يكون (عصرُ النهضة) هذا استمراراً للعلم العربي , هذا العلم الذي لا يريد أصحاب ذلك الرأي أن يقرّوا بوجوده على مدى العصر الوسيط كله ، عصر الظلام عندهم ، لا يريدون أن يروا أن عصر الظلام الأوربي هذا كان مواقتاً لعصر نورٍ وإشعاعٍ في العالم الإسلامي, استمر من القرن التاسع الميلادي– في أسوأ تقدير – إلى القرن الثاني عشر الميلادي ، وأنّ صقلية والأندلس وجنوب ايطاليا في هذه القرون كانت تتعلم من العالم الإسلامي , تنقل عنه, وتترجم مؤلفاته.

لقد شهد القرن العشرين نشاطَ عدد من العلماء بحثوا عن الحقيقة , فتبين لهم أن هذه الأحكام التي أصدرها مؤرخو الطب الأوروبيون كانت مجافية للحقّ وبعيدة عن الإنصاف ، فقالوا أن ما يسميه المؤرخون الأوربيون"عصر النهضة" إنما هو استمرار للعصر الإسلامي في أوروبا. نقلت أوروبا خلاله العلمّ العربي في سالرنو وطليطلة وغيرهما من المدن.

وبّين هؤلاء العلماء أن "التراث الإغريقي" الذي عرفته أوروبا إنما هو التراث الإغريقي المكتوب بالعربية , وكلُّ ذلك بجهد علماء من العالم الإسلامي حفظوا هذا التراث الإغريقي, وأضافوا إليه وأغنوه وأعادوا تبويبه ، وصنفوه ونقلوه إلى أوربا، وأن تراث الإغريق عند العرب كان محفوظاً إما مترجماً وإما مشروحاً أو ملخصاً.

ونقول إضافة إلى ذلك : إن المسلمين نقلوا تراثَهم وتراثَ الإغريق ليس إلى أوروبا فقط بل إلى الأمم المجاورة, إلى أفريقيا والهند وأواسط آسيا حتى حدود الصين وإلى أرمينيا والقوقاس والبلقان وحوض القولغا وإلى المحيط الهندي ، وبيّن هؤلاء العلماء أيضاً أن الإغريق يشكّلون حلقةً متوسطة في تاريخ العلم ، الذي يبدأ قبلهم بكثير . فالإغريق حلقة في وسط السلسلة وليس في أوّلها .

كان الطب منذ ظهور الإنسان على هذا الكوكب حاجةَ الإنسان الأولى, وتطوّرَ الطبُّ مع تطور البشرية, وظلَّ ملكاً لها, ساهمت كل المجتمعات البدائية في الإجراءات الطبية الأولى, في تجبير الكسور وتضميد الجراح والعناية بالولادة وغيرها.

وتطورت معلومات الإنسان : تجمعت المعارف وكثرت الملاحظات, واغتنى بذلك مخزون العقل البشري من المعرفة ، وطوّرت هذه المعرفةُ إمكاناتِ العقل البشري فصار أقدر من ذي قبل على اجتناء المعارف الجديدة .

ولما تكونت المجتمعات الأولى, وظهرت الحضارات الأقدم, توفرت فيها مادةٌ غزيرة من الممارسات الطبية والخبرات المتراكمة .

لا يعرف تاريخنا أيةَ كارثة من شأنها أن تُفقدْ أهلَنا في القرون الطويلة قبل الميلاد معارفَهم الطبية, لقد ظلوا مقيمين في بلادهم عاكفين على نشاطات حياتهم ممارسين لحاجاتهم الطبية, وفي هذه الأثناء تعلمتْ منهم الأمم المجاورة لهم, وفي مقدمة هذه الأمم, قدماء الإغريق, وقدماء الفرس. و لمّا جاء الإسكندر إلى بلادنا, ولمّا جاء قبله الفرس, حملوا معهم معلومات طبية من أصل عربي, نعني بذلك عرب ما قبل التدوين, من قدماء سكان وادي النيل, وسكان وادي الرافدين, وبلاد الشام .

لكن الإسكندر أحضر معه فيما أحضر شيئاً جديداً في تاريخ الطب هو النظرية الطبية, التي كانت جزءاً من فلسفة اليونان الطبيعية ، وأحضر أيضاً الطّبَّ العملي مكتوباً باليونانية .

و بذلك أحسَّ أجدادنا أن بضاعتهم قد ردت إليهم . وازدهر الطب في الإسكندرية , ففيها تفاعلت معارف مصر القديمة مع معارف الإغريق, وظلت الإسكندرية تشّع وتملأ جوارها من نور الطب الحديث فظهرت جوامع الإسكندرانيين ووصلت إلى رأس العين, ومنها إلى انطاكية, والرها ونصيبين, وآمد, وجنديسابور.

وتطورت في ظل المرحلة الهلينستية من التاريخ ثقافةٌ مصرية في الإسكندرية, ووادي النيل, كما تطورت في المرحلة نفسها ثقافةٌ سريانية في الشام والعراق.

ولو تأخر ظهور فجر الإسلام ردحاً من الزمن , لتشكلت أمة قبطيّة لها جذور شرقية, وجذور هلينستية, في مصر, ولتكونت أمة سريانية في الشام والعراق تستند بدورها إلى تراث تلك البلاد الذي يعود إلى آلاف عديدة من السنين.

لكن الإسلام بغناه الروحي وتسامحه الإنساني , كان استمراراً لديانات السماء وراعياً لحضارات الشرق القديم ومكمّلاً لمكارم الأخلاق , فأعطى الفرصة لتشكّل أمةٍ جديدةٍ هضمت كل ما في الشرق من نورٍ وسماحةٍ وقِيَمٍ ، مبشراً ببدء مرحلة جديدة في تاريخ البشرية مرحلة الحضارة الإسلامية, هذه المرحلة التي عزَّ مثيلها في تاريخ الجنس البشري .

كانت مدرسة الإسكندرية قد شهدت مرحلةَ انحطاط الطب الإغريقي ، فقد غاب (الطب النظري) وانعدمت المؤلفات في هذا الحقل ، وظهر بدلاً منها عددٌ من الكنّاشات ، وهي كتب تعنى بالطب العملي : وصفَ أعراض المرض وكيفيةَ معالجته دون الاستناد إلى النظريات الأِمراضية ودون تفسير ظهور الأعراض ، ومعرفةِ آليةِ حدوث المرض ، بل دون أيِّ تطرُّقٍ لعلميّ التشريح ووظائف الأعضاء .

وأدرك أساتذة مدرسة الإسكندرية خطورة هذه الظاهرة ، وفهموا أن استمرارها يعني نهاية الطب بوصفه علماً . وقدروا أن واجبهم يستدعي إعادة الاعتبار للطب النظري ، فاختاروا عشرين كتاباً لجالينوس وابقراط . واختصروها وجعلوها مادة للتدريس في مدرسة الإسكندرية .

لم تدرك أثينا ولا روما ولا القسطنطينية أهميةَ هذه الخطوة ، ولم تفهم معناها التاريخي . أما الذي فهم هذا فهو المدن السورية ، التي أخذت الترجمة السريانية لهذه الملخّصات وجعلت منها مادةً للتدريس اعتمدت عليها انطاكية والرها ونصيبين ، وجنديسابور بعد ذلك .

هذه الملخّصات جعلت من أطباء الشام وبلاد الرافدين والاحواز أطباءَ على مستوى أعلى من ذلك الذي كان عليه أطباء بلاد الروم واليونان . ولا عجب في ذلك فتلك البلاد تفتقر إلى المخزون الحضاري الذي تنهل منه الشام وبلاد مابين النهرين .

لقد جمع التراثُ الطبي في بلادنا قبل ظهور الإسلام العناصرَ الموروثة إلى العناصر القادمة من اليونان ، نعني بذلك (النظرية الطبية) .

أما الموروث العريق فالدلائل عليه كثيرة :

1- كانت بلادنا مَهْدَ **المدوَّنات** الأولى في التاريخ الطبي : برديّات وادي النيل والرقم الطينية في بلاد مابين النهرين والشام .

2 – وكانت كذلك أَوّلَ من نَظَّمَ الممارسةَ الطبية ووضع لها **القوانين التي تحمي المهنة** ، كما تحمي المريض . وذلك في الأصول الأقدم التي وصل إلى عصرنا منها ما حفظته شريعة حمورابي .

3 – وكانت بلادنا تنظر إلى مهنة الطب على أنها رسالة .. رسالة مواساة للمريض ، يقوم بها الطبيب دون مقابلٍ ودون أجر . ولا أدلّ على ذلك من سيرة داميان وكوزما .

وكما سجّلت الإسكندرية – وبعدها مدن الشام – هذا الإنجازَ التاريخي المهم ، سجّلت جنديسابور الإنجاز الثاني الذي لا يقلّ أهمية عن الإنجاز الأول ، ذلك أنها ابتكرت أسلوباً جديداً لتدريس الطب العملي ، هو التعليم السريري . فبعد أن ينتهي الطالب من دراسة الطبِّ النظري تبدأ مرحلة الدراسة العملية في المشفى على سرير المريض .

بهذه الخطوة العبقرية في تاريخ التعليم الطبّي ، أتيح للطالب أن يرى عدداً أكبر من المرضى فقبل ذلك كان لا يرى إلاّ المرضى الذين يراجعون والده في عيادته يوم كانت مهنة الطبّ مهنة يتعلمها الأبناء من الآباء .

وفوق ذلك أتيح للطالب – في المشفى – أن يتعلّم من عدد كبير من الأساتذة الذين يعملون في المشفى ، وأن لا يقتصر على معلّم واحد .

وإضافة إلى ذلك كان الطالبُ يراقب تطوُّرَ سير المرض، وتطور أعراضه وعلاماته ، ومن هنا نفهم لماذا كان الطب في مصر والشام وبلاد الرافدين عند ظهور الإسلام أعلى من حيث المستوى من الطب في البلدان الأخرى . نقصد بذلك روما وأثينا والقسطنطينية تحديداً .

كان العرب في جاهليتهم على معرفة بعلوم الشرق القديم, في فارس, وبيزنطة, وحوض المتوسط, فلمّا قامت الدولة الأموية, لمعت في سمائِها أسماء أطباء يمثّلون العلمَ القبطي والعلمَ السرياني, وفي مرحلة أبعد تعرّف المسلمون على أطباء جنديسابور وفارس والهند.

وقبل ذلك كان الطب العملي في بلادنا في أعلى المستويات التي كان عليها في العالم, ونتيجة لاحتكاك المسلمين بأطباء الشام والعراق ومصر الذين نشأوا ودرسوا الطب قبل الإسلام, أدركوا أهميةَ النظريةِ الطبيةِ اليونانية, والطبِّ النظريِّ اليوناني, فحرصوا على ترجمته ونقله من مصادره إلى العربية, ولهذا تأسس بيت الحكمة, وبدأ عصر الترجمة بكل زخمه.

لقد كانت حركة الترجمة نتيجةً للوعي المعرفي عند الأطباء, وعند الحكام, ولم يكن عصرُ الترجمة بدايةً لتّعرُّف العرب على الطب, أو خطوة أولى لظهور ما نسميه الطب العربي. ما كانت حركة الترجمة لتظهر أو لتزدهر لو أن العرب في فجر الإسلام أطباء وحكاماً كانوا في مستوى معرفيّ لا يسمح بتقدير الطبِّ النظري حقّ قدره, وتقييم العلومِ الأساسيةِ الطبية حقّ قيمتها. ما كانت حركة الترجمة لتظهر لولا المستوى الرفيع للممارسة الطبية في ديار الإسلام .

ومع الأسف فقد صدّق كثير من الباحثين العرب آراءَ المستشرقين, ومؤرخي الطب الغربيين, الذين يزعمون أنّ عصر الترجمة هو الذي جاء بالطب إلى دنيا الإسلام ، وأن الترجمة كانت أوّلَ مناسبة سمع فيها العرب اسمَ الطبي اليوناني .

الحقيقة إذن أنّ الطب في بلادنا , قبل أن يظهر الإسلام كان أغنى محتوىً, وأرفعَ مستوىً مما كان عليه في أي مكان آخر في العالم، نقصد بذلك روما وأثينا والقسطنطينية مرة أخرى .

ولم يكن في العالم القديم كله، مكانٌ مُؤَهَّلٌ لأن تقوم فيه حركة الترجمة إلا بغداد عاصمة الدولة الناشئة ، لقد لعبت بغداد الدور الذي لعبته دمشق ومن قبلها جنديسابور .

لا ننسى أن بدايات الترجمة كانت أيام خالد بن يزيد, وبعده في العهد المرواني في دمشق .

ولا ننسى أنه في جنديسابور تفاعلت العناصرُ الطبيةُ اليونانية والسريانية والإسكندرانية مع العناصر الفارسية والهندية, وأن الطب القديم نُقل من كل هذه اللغات إلى كتب (الخوز) ومعاجمهم .

لقد أنهى الإسلام مرحلة من الدمار التي سببتها الحروب الفارسية البيزنطية, فأتاح بذلك لمراكز العلم في العالم القديم أن تتعارف وأن تتفاعل.

" إنا خلقناكم شعوباً و قبائلَ لتعارفوا"

وقد أثمر هذا التعارف أروعَ الثمار, فكان علماء دولة الإسلام, ينتمون إلى شتى الأعراق ومختلف المذاهب, وأكدّ الإسلام حقَّ المواطنة, وحريةَ الرأي والمعتقد، فصارت المساواة بين العلماء تقليداً في المجتمع الإسلامي :((إنما المؤمنون أخوة))

((كأسنان المشط))

((إن أكرمكم عند الله اتقاكم))

أدرك المسلمون قيمة الطب وأهميتَه, فأمروا بضرورة أن يتعالج المريض وأن يتداوى, ولذلك نظروا إلى الطب بوصفه مهنة ضرورية, بل مهنة شريفة, ولم يسمحوا بالقول بأن التداوي إجراء لا معنى له في مواجهة القدر . ((إن الذي خلق الداء خلق الدواء .))

واحتلّ الطبيب بذلك مكانةً متميزة في المجتمع فَرَضَتْ عليه سلوكاً ينبع من تربيته ومن أخلاقه وقِيَمِهِ ويلبّي ما ينتظره المجتمعُ منه.

حينما احتكّ المسلمون بسكان البلاد التي انضوت تحت راية الإسلام ، تعرّفوا إلى سكانها الذين أنعم الله عليهم بنعمة السلم والرخاء . فتعلموا منهم الكثير .

وأهمّ ما تعلموه في حقل الطب هو أن يعودوا إلى المصادر المكتوبة التي كان الأطباء – قبل الإسلام – يعودون إليها ، أرادوا أن ينهلوا من النبع .

لم يكن أجدادنا – ذلك الوقت يعانون من مركّب النقص أو عقدة الصّغار . فأخذوا علوم الأمم الأخرى ، وهم يدركون أنها ملكٌ للبشر جميعاً .

وكان الإسلام قد دلّهم على قيمة العلم وأهميته . وعلى مكانة العلماء وقدرهم :

1- اطلب العلم من المهد إلى اللحد .

2 – اطلبوا العلم ولو في الصين .

3 – إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء .

لم يكن جابر بن حيان ليجد أيّ حَرَج في رفض آراء جالينوس ، والردّ عليها .

وقال الرازي : أن علينا أن لا نأخذ ما نجده عند الآخرين على أنه حقائق ، علينا أن نضع كلَّ ما نقرأه على محكّ العقل . والعقلُ هو الذي يقبله أو لا يقبله ، لقد كانت ثقةُ الطبيب العربي بنفسه عالية .

قرر العرب منذ أيام جابر بن حيان أن الطب علمان: العلمُ النظري والعلمُ العملي, وعرف العرب من أيام الكندي أن العلومَ أسرةٌ واحدة لا يتطور أحدُها بمعزل عن الآخر, وأن الطب هو أشرف هذه العلوم, وأن حاجة الإنسان إليه أكثر من حاجته لأي علمٍ آخر.

تمكن المسلمون في عصر الترجمة – عصر بيت الحكمة – من نقل التراث الطبي الإغريقي إلى العربية ، ويعود الفضل إلى حنين بن اسحق وإلى ابن أخته حبيش بن الحسن الأعسم في تلخيص أسس الطب النظري الإغريقي ، وذلك في كتاب جعلاه على طريقة (المسألة والجواب) ، نعني بذلك كتاب (المسائل في الطب) ، وقد صار هذا الكتاب مادةً يرجع إليها المتعلمون للتعرّف على مبادئ النظرية الطبية الإغريقية .

وقد ترجم حنين معظمَ تراث جالينوس الطبي إلى السريانية وإلى العربية ، ساعده في ذلك تلامذته .

اعتمد التراجمة الكبار وعلى رأسهم حنين أسلوبَ تحقيق المخطوط قبل ترجمته ، وحنين في رسالته إلى علي بن يحيى المنجم يذكر أمثلةً على المخطوطات التي اضطر إلى تحقيقها .

وبعد التحقيقِ وفَهْمِ المادة العلمية يقوم حنين بشرحها أو اختصارها لجعلها أسهل متناولاً ، كما أنه يعيد تحريرها ويستخدمها في تأليف كتبٍ أوضحَ أسلوباً موجهةٍ إلى المتعلمين .

وأروع مثال على ذلك هو أن حنين استخلص المادة المتعلقة بعلم العين من مؤلفاتٍ لجالينوس يزيد عددها على العشرين ، واستخدم هذه المادة بعد تبويبها في تأليف مقالاته المشهورة في طب العين ، وفي تأليف كتاب (المسائل في العين) .

لم يكن المؤلفون العرب في عصر الترجمة منفعلين ، بل كانوا فاعلين ، وجاء جهدهم خلاقاً ، فلم يقتصر عصرُ الترجمة على نقل العلم القديم من مصادره الأصلية ، بل ظهرت في هذا العصر مساهماتٌ أصيلة أضافها هؤلاء المؤلفون إلى العلم ، فكانت بذلك أوّلَ مشاركة فعّالة ، وجاءت بمثابة تباشير لعصر الترجمة .

وجاءت المرحلة الثانية من مراحل استيعاب الطب القديم على يد الرازي – محمد بن زكريا – الذي جمع المادّةَ العلمية من كلّ المصادر الإغريقية التي كانت قد تُرْجِمتْ إلى العربية ، وأضاف إليها تراثَ الأمم الأخرى ، وشرع في تأليف كتاب موسوعي في الطب سمّاه (الجامع) . لكنه توفي قبل أن ينجزَ تحريرَه . وظلت مسّوداتُه محفوظةً إلى أن أخرجها تلامذته في كتاب ضخم سمّوه (الحاوي في الطبّ) .

لكن الرازي قبل ذلك وضع الطبَّ كلّه ملخّصاً في كتاب مختصر سماه (المنصوري في الطب) .

وظل مشروع الرازي موضعَ اهتمام الأطباء الذين جاءوا بعده فكتب علي بن العباس المجوسي (كامل الصناعة الطبية) وكتب أبو الحسن الطبري (المعالجات البقراطية) وكتب ابن سينا (القانون في الطب) .

وبذلك وصل الطبُّ العربي إلى قمةِ مرحلة بنائِهِ وتأسيسه بظهور هذه الأعمال الشاملة التي صارت مرجعاً يعود إليه الطلبةُ منذ ذلك الزمن ، منذ بدايات القرن الحادي عشر الميلادي (الخامس الهجري) .

بعد ذلك قلّ أن نجدَ أن مؤلفاً عربياً قد رجع إلى ترجمات كتب الإغريق ، بل صارت هذه الأعمال المرجعَ الرئيس ، وليس غيرها .

واستمر المشروعُ – الذي يهدف إلى جمع مادّة الطب كلها بين دفتي كتاب واحد – إلى عصر ابن النفيس الذي كتب (الشامل) الذي يُحَقّق ما سعى الرازي إليه .

وكما كتب العرب كتباً جامعةً مانعةً كتبوا كتباً في العلوم الصيدلانية وفي الكحالة وفي الجراحة . وفي هذه المرحلة من تاريخ الطبّ تمَّيزَ علمُ الصيدلة عن علم الطب ، في مؤلفاتٍ عديدة وفي الممارسة العملية أيضاً .

إلا أنه ظل من المألوف أن يعمل الطبيب في الحقلين معاً إذا شاء ، أو أن يتخصّص في أحدهما .

لم يكن التخصص إلزامياً ، فقد اختار بعضُهم التخصّصَ كما فعل علي بن عيسى الذي اقتصر في الممارسة وفي التأليف على طب العين (الكحالة) ، بينما آثر بعضهم أن يمارس الطبَّ العام بفروعه المختلفة .

وظهرت مفاهيم جديدة منها مفهوم (الأمراض الجراحية) وهي الأمراض التي لا تشفى إلا بالجراحة . وظهر كذلك مفهوم (المرض النفسي) و (العدوى) .

وكما تميزت في العصر الإسلامي من حياة العرب فروعٌ من الطب وصلت إلى الذروة في التخصص كالكحالة والجراحة . ظهرت إرهاصاتُ تخصصاتٍ جديدة ... فنحن نرى بداياتٍ لعلم حفظ الصحة ، وللتخصص في طب النساء ، وطب الأطفال ، بل طب العيون عند الأطفال .

وفي علم حفظ الصحة ظهرت مؤلفات تُعْنَى بالصحة الوقائية والأوبئة وبصحة الحبالى والمولودين .

وفي المداواة ظهرت مؤلفات اهتمت بالحمية والتغذية : تغذية الأصحاء وتغذية المرضى . وتطورت أساليب الجراحة (وبخاصة عند الزهراوي وابن القف) وظهرت أدوات جراحية جديدة (عند الزهراوي وعند خليفة بن أبي المحاسن) ، كما تطور علم التخدير بأشكاله الأولى وإرهاصاته المبكرة .

وظهرت العلامات المبكّرة لولادة تخصصٍ جديد كاد أن ينفصل عن الجراحة العامة هو الجراحة العظمية .

ونرى هذه العلامات بدءاً من عصر الزهراوي (ق11م=5 هـ) مروراً بعصر السُّلَمي (ق12م=6هـ) وحتى أيام ابن القف (ق13م=7هـ) .

أدّى انتشار المشافي في كل الحواضر الإسلامية إلى نتائج مهمّة إذ صار الطبيب يكتب مشاهداتِهِ ، وهذا ما أدّى إلى وصفٍ أدقّ للأمراض ، كما أدّى إلى تطوّر علميّ التشخيص التفريقي ، والإنذار ، فميّزَ الرازي بين الجدري والحصبة اعتماداً على الأعراض المرافقة ، وعلى تطور علامات المرض أثناء سيره .

وفي المشفى لم يعد دور الطبيب مقتصراً على وصف الدواء ، بل أُضيف إليه ما يسمّى اليوم (التدبير) كالفصد والحجامة وإدخال المريض إلى الحمّام ، إضافة إلى التحكم في غذائه . ونتيجة لمراقبة المرضى في المشفى ظهر مفهوم (المرض السالم) و(المرض المخوف) .

وترك لنا بعضُ المؤلفين مشاهدات وتقارير بالغة الدقة ، فعمّار بن علي الموصلي وصف نتائج الأعمال الجراحية التي أجراها على العين .

وفي المشافي تطور أسلوب التعليم فصرنا نعرف أسماءَ الأساتذة وأسماء تلامذتهم . وصرنا نعرف المدارس الطبية التي تطورت في بغداد ودمشق والقيروان .

كما وصلت إلينا معلومات وافية عن نظام الامتحان ، وأسلوب الأسئلة ، والمواد المقررة وأسماء الكتب التدريسية والمراجع المعتمدة .

ولاحظ الأطباء علاقة انتشار المرض باستعداد جسم المريض للإصابة ، فثمة أمراض يكثر وجودها في فصل من فصول السنة دون آخر ، وثمة أمراض تصيب فئة من الناس في عمر معين دون عمر آخر .

عرف العرب قَسَم ابقراط منذ عصر الترجمة ، لكن هذا القسم لم يكن الناظم الوحيد لآداب الطب عندهم ، بل كانت الأخلاق الطبية مبنيّة على عنصرين آخرين لعبا دوراً مهماً في حياة الأطباء العرب .

أولهما القِيَمُ الدينيةُ : المسيحية منها والإسلامية ، فالدين يأمر بمكارم الأخلاق ويحرّم على الإنسان القَتَل فما بالك بالطبيب ؟

وقد حفظت كتب التراث قصة حنين بن اسحق مع المتوكل الذي أمر حنيناً بتركيب دواء قاتل فأبى حنين ، وعرّض بذلك حياته للخطر ، ذلك أن وازع الدين وأخلاق المهنة لا تسمح بأن يكون الطبيب أداة الحاكم لقتل أعدائه . حنين : ((... الدين يأمرنا بفعل الخير والجميل مع أعدائنا ، فكيف مع أصحابنا ؟ والصناعة تمنعنا من الإضرار بأبناء الجنس لأنها موضوعة لنفعهم ومقصورة على مصالحهم ..)) .

ويحيى بن أبي الرجاء يقول لتلامذته : ((... واحذر أن تتبه على دواء قاتل أو كحل يحجب البصر أو يضعفه ...)) .

وثانيهما المنظومة الأخلاقية العربية التي عُرفت بالمروءة ، بكلّ ما فيها من قيم الشجاعة والتضحية والكرم والإيثار والتواضع ونكران الذات .

وفي المحصلة إن الطبيب ينبغي أن يتحلّى : بالرحمة والرأفة والطهارة والعفة والنقاوة والكتمان وحب الخير .

إضافة إلى ضرورة الإنكباب على الاشتغال بالعلم ، ومعاشرة العلماء ، وينبغي عليه أيضاً ترك الشهوات البدنية .

وعلى الطبيب أن يصف للمحتاجين الغذاءَ والدواءَ في حدود قدرتهم على الحصول عليها بازهد الأثمان ودونما مشقة .

وإن كان الطبيب مقتدراً فعليه أن يعطي الدواء للفقراء من ماله الخاصّ . ((... وإن أمكنك أن تؤثر الضعفاء من مالك فافعل ، ولا يكون غرضك جمع المال ، بل تحصيل الثواب .))

وفي كتب الطب فصول عديدة تنهى عن السعي وراء المال والثروة بل أن عبد الودود بن عبد الملك كتب رسالة سمّاها (في ذم التكسّب بصناعة الطب) .

وقد نظر الطبيب إلى أساتذته نظرة احترام وتبجيل ، فالمؤلف يفتخر بأنه تلميذ أستاذه ، علي بن العباس المجوسي – مثالاً – يقدّم نفسه على أنه تلميذ أبي ماهر موسى بن سيّار .

وإذا وجد الطبيب خطأً في كتاب لأحد الأساتذة فإنه يمتلك من الشجاعة ما يسمح له بتبيان هذا الخطأ ورفضِ رأي الأستاذ ، ولكنه في رفضه هذا يعبّر عن احترامه الشديد لأستاذه الذي يُكِبرُهُ ويجلُّهُ ، وكثيراً ما كان يبحث عن مبّررٍ لهذا الأستاذ مفسّراً وقوعه في الخطأ ، كان يبحث له عن عذر .

يقول الرازي : ((.. وهذا سهو من الفاضل جالينوس .))

ومن صفات الطبيب التواضع ، وبخاصّة حين يؤلف كتاباً ، فهو يقول أولاً أنه استفاد من قدماء المؤلفين ، وجَمَعَ أقوالهم ولم يضف من تجربته وخبرته إلاّ القليل . ومبرر تأليف الكتاب هو أن يكون ((.. قد وقع منهم رحمهم الله تعالى إهمال بعض ... من الجزئيّات)) .

ويختم كلَّ رأي يقوله (والله أعلم) ، وهو أمين في النقل والاقتباس يسند كل قول إلى صاحبه .

و يستميح المؤلفُ القارئ عذراً ، لأنه يخشى أن يقع في زلل أو خطأ ويرجوه إن وجد زلة أن يصلحها ، فالقارئ ((يتكرم)) على المؤلف بسبب ((طيب أصله)) وهو عندئذ ((جواد في فعله)) ((والكمال لله وحده)) .

((أن تجد عيباً فسدّ الخللا جل من لا عيب فيه وعلا)) .

وينبغي على الطبيب أن يكون شجاعاً لا يتقاعس عن أداء واجبه وبخاصّة أيام انتشار الأوبئة والجائحات .

وعليه أن يُقْدِمَ على إجراء الأعمال الجراحية مهما كانت صعبة . فالمريض بحاجة دائمة إلى الطبيب ، ومتعلق دائماً بأمل أن ينجح العمل الجراحي . لذلك على الطبيب أن يتحمل المسؤولية التي أنيطت به والتي ارتضاها لنفسه مهما كانت هذه المسؤولية جسيمة .

إذا كُتب للعمل الجراحي النجاح فالشافي هو الله . وإذا لم ينجح العمل الجراحي فتلك إرادة الله .

وعلى الطبيب أن لا يكون مغامراً ، لا يجوز له أن يجري العمل الجراحي عل العينين في وقت واحد ، بل عليه أن ينتظر شفاء العين الأولى قبل أن يتداخل على العين الثانية .

كل هذا الإيمان بالله ، وبأن الله هو الشافي ، لا يمنع الطبيب العربي من رؤية الحقيقة : فالطبيعة هي التي تكافح المرض ، والطبيب يساعدها بأن يصف الدواء المناسب والغذاء الضروري .

ليس الطبيب إلا مساند للطبيعة ، وهو بذلك يحمل رسالة اختاره الله لحملها وشرّفه بذلك .

لقد حمل العرب رسالة العلوم الطبية ممارسةً وتأليفاً ، قاموا بدورهم على أكمل وجه فكانوا حلقةً في سلسلة تطوّر الطب الذي هو ملكٌ للبشرية جمعاء ، في عملهم العظيم هذا يتّسمون بالتواضع ويخلصون للحقيقة ، يتقون الله في تعاملهم مع أساتذتهم ومع المرضى .

وتركوا بذلك تراثاً يَرْضَون عنه ، ويُرْضِي أحفادهم ، وكلَّ من أخذ عنهم . وقبل كل شيء يرضى الخالق الذي شرّفهم باختيارهم لأداء هذه الرسالة التي تستحق أن يحيى الإنسان من أجلها ، فكان عملهم قدوة للأمم الأخرى ، وللأجيال الجديدة .